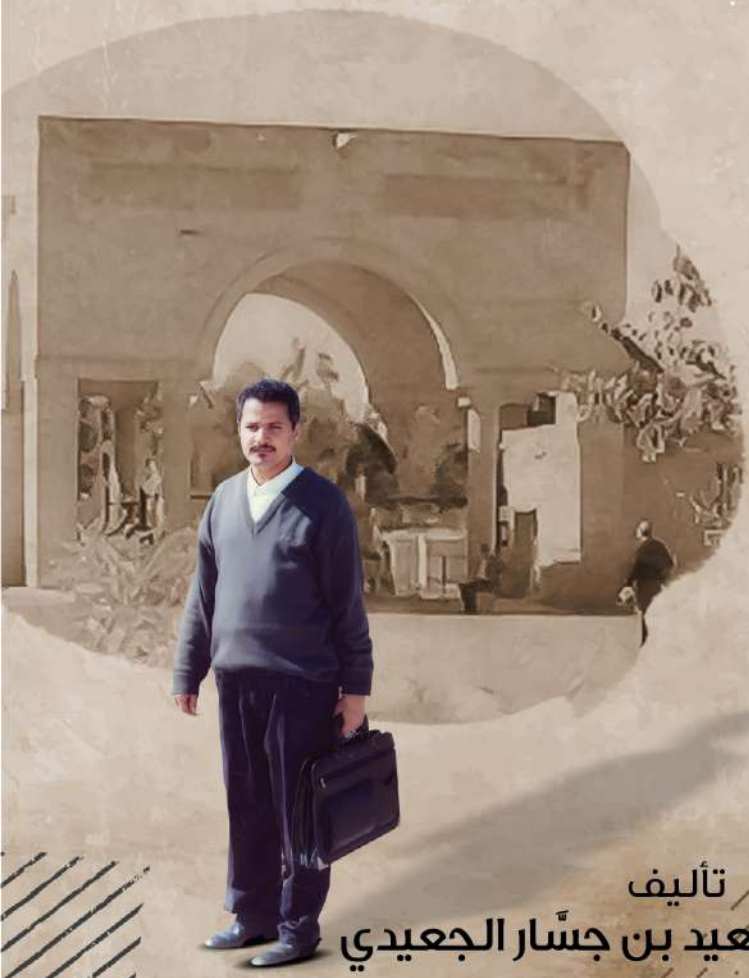
بغداد.. رؤية من الداخل

(يوميات طالب جامعي)



تأليف

أ. د. عبدالله سعيد بن جسَّار الجعيدي

بغداد.. رؤية من الداخل

(يوميات طالب جامعي)

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت ٢٠٢٣/٢٧٧م

عنوان الكتاب: بغداد.. رؤية من الداخل (يوميات طالب جامعي)

تأليف: أ. د. عبدالله سعيد بن جسَّار الجعيدي

حجم الكتاب: ١٤ × ٢٠ سم.

الإخراج الفني:

حسن أحمد بلجعد

تصميم الغلاف:

عبدالله الكاف

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير
والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي
وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

بغداد.. رؤية من الداخل

(يوميات طالب جامعي)

أ. د. عبد الله سعيد بن جسَّار الجعيدي



الإهداء

إلى: العراق المجيد..

وإلى (كواكب العبيدي)

محبة، ووفاء

تقديم

أ. د. خالد يسلم بلخشر

الكتاب، الذي بين يدينا، يشتمل على مذكرات تتناول محطات متفرقة من فترة دراسة مؤلفه للدكتوراه في جمهورية العراق، وتحديداً في العاصمة بغداد، للفترة ما بين شتاء العام ٢٠٠٠م، حتى شتاء ٢٠٠٣م، تخللها الغزو الأمريكي في ربيع ٢٠٠٣م، وفترة العودة لحضرموت في انتظار استقرار الوضع الأمني في العراق، أو البحث عن بدائل أكاديمية في بلدان أخرى، في الفترة نفسها كنت كذلك في العراق للغرض نفسه، ولهذا أقف على حافة بعض الأحداث، وفي العمق من أكثرها.

إن السرد في هذا الكتاب لا يتبع خطًا واحداً، ولا تفاصيل يومية، بقدر ما هو مقالات عن السكن، والجامعة، واللهجة، والمجتمع البغدادي بشكل عام، وتقف بغداد في هذه الذكريات بهية جميلة

مع كل ما لحق بها من ضرر جراء الحروب، والغزوات، والقصف، والحصار، بغداد هي محور السرد، وبطلته المتسيّدة، والحاضرة بقوة في طياته، وهي مدينة ليست كسائر المدائن، مدينة لا تشبه إلا نفسها، يشعر المرء فيها بأنه يعيش في مدينة صامدة منذ قرون من الزمن، وفي الواقع بغداد هي مجموعة مدن تتداخل في مدينة واحدة شاسعة، تمتد أفقيًا على مساحة كبيرة، تملؤها غابات النخيل التي تكسوها بهالة من القتامة وقت الغروب، وفي ساعات الفجر الأولى؛ لهذا يُطلق على العراق (أرض السواد).

فبغداد تلك المدينة المدورة التي دار عليها الزمان، وجار عليها الجيران، خلقت لتبقى، ساخرة من عاديات الدهر، وتعاقب النكبات، وتوالي الغزوات الهمجية عبر التاريخ، التي هدفت إلى محوها من الخارطة.

عندما طلب مني الصديق أ. د. عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي تقديم كتابه الذي اختار له عنوان (بغداد.. رؤية من الداخل)، ربما كان ذلك الطلب عندي بمثابة رحلة عكسية للزمن، أو ما يعرف

بالفلاش باك؛ فقد أعادني إلى بغداد لتلك المدينة الجميلة الجليلة، بجلال المنصور والرشيد، وجمال دجلة والمتنبي، وخيالات سندباد، بغداد الكلمة الحلوة التي تسمعها منذ أن تصبح حتى تمسي؛ لهذا فإن الكتاب مثّل لي استعادة الماضي بكل ما فيه من شجن وذكريات، حيث التحقت ببرنامج الدكتوراه مع صديقي الجعيدي في العام ٢٠٠٠م في الجامعة نفسها (جامعة بغداد)، كان في كلية التربية، وأنا في الآداب؛ لهذا جمعتنا لقاءات، وذكريات، ومصير مشترك، اختزلت في داخلي مشاعر وذكريات مضى عليها ما ينيف على العقدين من الزمن، حيث وجدت نفسي متجولاً ببغداد وشوارعها، جامعتها وأحيائها، عاداتها وتقاليدها، زوارها ومحبيها. وهنا يحضرني قول حسين المحضار:

"إعادة الماضي إلى الحاضر محال
لكن قلبي ما توقع في محله
إذا جيت بنساه ذكره الخيال
وآثار بقيت بعد محبوب خله"،

الحديث عن بغداد -في عين المؤلف- يبدأ من غرفتين في سطح فيلّا في شارع فلسطين، مؤجرة من أسرة عراقية كريمة يتذكرها بمحبة ووفاء؛ لما لمس منهم من حسن الجوار وطيب المعشر، ولم تحُل سكنى السطوح دون أفق الطموح، فمن خلالها عرض للتعددية الدينية والمذهبية في المجتمع العراقي، وحالة التعايش بين العراقيين رغم تنوعهم العرقي والديني، تراه يكتب عن الجار المسيحي وكلابه المزعجة، ثم يعرج على أحياء بغداد التي تتسم بطيف مذهبي يسودها كحي الكاظمية الشيعي، ولكنه يبقى ماسكًا (قلمه) من المنتصف بحكمة المتعمق في التاريخ، فيشيد بأساتذته من المذهبين السائدين؛ ليطمئن القارئ أن لا فرق، ولا تمايز، ولا حتى تحسس عرقي أو مذهبي بين العراقيين، بل يسود علاقاتهم الانسجام، والتناغم، والتكامل.

عندما يكتب الجعيدي فهو يكتب بعقلية المؤرخ/ الأديب، الذي يعنى بتفاصيل صغيرة، ربما يستغربها الكاتب غير المتخصص بالتاريخ؛ فهو يرى الكتابة وثيقة تاريخية ينبغي أن تتميز بدقة الرصد،

وصحة النقل، فلعل هناك من يأتي بعد زمن طويل ليستند إليها كدليل تاريخي لحقبة مرت على مدينة اقترن اسمها بالتاريخ والجغرافيا، والعلم والأدب، والثقافة والفنون، والحرب والسلام؛ لهذا لم تفته حركة المسافرين من حضرموت إلى بغداد؛ لغرض العلاج معيدًا ذلك إلى قدرة القادمين على تدبير أمور العيش، وأجور العلاج في مدينة أنهكها الحصار، ولكن لم يؤثر كثيراً في مستوى الخدمات العلاجية؛ بسبب وجود الكادر العراقي المؤهل والمتمرس، فكانت بغداد – على مشقة الوصول إليها عبر الطريق البري من الأردن– تشكل الخيار الأفضل لمحدودي الدخل، فيما لو قورنت بمدينة نيودلهي أو عمان أو القاهرة.

ولم يُغفل كاتبنا (البغدادي/ المكلاوي) الحديث عن بغداد بعد الغزو الأمريكي في مارس ٢٠٠٣م، مع قصر فترة إقامته في بغداد؛ لغرض مناقشة أطروحته للدكتوراه، ورصد آثاره على نفسية المجتمع العراقي، فقد أدرك التغيير السلبي الذي طرأ في المدينة على مستوى المزاجين العام أو الخاص، من خلال تغير

النظرة نحو العربي القادم إلى العراق، والذي كان يحظى بمعاملة مثلى في فترة النظام البعثي السابق.

وعودًا على بدء، فإن الكتاب بين أيديكم يتحدث عن نفسه بنفسه، ومؤلفه مألوف لديكم بما تقدم من كتبه وكتاباته، فلا أطيل، وما توفيقي إلا بالله.

المكلا ١٥ يونيو ٢٠٢٣

* * *

توطئة

هذا الكتاب ليس عودة متأخرة لمدينة بغداد، أو زيارة مفاجأة لها؛ إنما هو حديث عن مدينة لها مكانة خاصة في وجداني صنعه الثراء العلمي الذي نهلته داخل أروقة جامعتها، ولدخولي في علاقات إنسانية معمدة بالود مع أساتذتي، وبعض أهلها، على ما في العراق في تلك السنين من جروح في الزمان.

ومنذ أن غادرت بغداد (نوفمبر٢٠٠٣م) انشغلت – إلى جانب انشغالاتي التاريخية – بكتابة المقالات التي سجلت فيها بعض مشاهداتي في محطات الحياة، واحتلت هذه المدينة مكانة خاصة من تلك المقالات التي نشرتها في المجلات المحلية الحضرمية، وبعضها نشر عبر الشبكة العنكبوتية ، وقد وجدت من المناسب تجميعها في مكان واحد، سواء تلك التي ضمنتها فيما بعد في كتابي: (أوراق مكلاوية، و(تأملات منتصف الطريق–أربعون مقالة ومقالة)، أو ما نشرته عبر صفحتي على الفيس بوك، أو ما هو مخطوط في

أوراقي، فتشكلت بذلك الوحدة الموضوعية (البغدادية) للكتاب، لكن برزت مشكلة الترابط الزمني الذي تتطلبه عادة كتب التجارب الخاصة، أو المذكرات، وفي البداية استحسنت إعادة ترتيب المقالات وفقًا للمنهج التاريخي(الزمني) لكن آثرت بقاءها بحسب أقدمية كتابتها كما هو حال كل مقالاتي المنشورة التي لم تتخلق في تركيبها لتكون سيرة ذاتية تستدعي بدايات تأخذ بعضها بخناق بعض، إنما هي تزاحمات وجدانية، وهواجس تنسل من داخلي في لحظات لا أستطيع السيطرة عليها، ولا أرى ذاتي، إلا شاهداً عليها أو عابراً فيها، ثم إنني لا أرى في سيرتي الخاصة ما يستحق الكتابة المستقلة. وقد استثنيت المقال الأول في الكتاب لأنه سجل بدايات دخولي المجتمع البغدادي.

وهذا الحال انعكس في تداخلات عنوان هذا الكتاب الذي قد يلتبس على القارئ الكريم عند تحديد هويته بتساؤلات من قبيل هل هو مذكرات شخصية، أو مشاهدات تحكي شذرات من قصة مدينة؟ ومهما كانت المسافة قريبة أو بعيدة بين الحاكي والمحكي عنه؛

فإني أقول بصدق إن مدينة بغداد هي أصل الحكاية، وما يومياتي فيها إلا يومياتها التي كنت شاهدًا عليها، ومتابعًا محبًا لها.

وبقي أن أتقدم بجزيل الشكر للعراق العظيم الذي عشت فيه بوصفي مواطنًا عربيًا، وضيفًا كريمًا، وشكر خاص لأسرة العم (منصور محمد فتاح العبيدي) التي خصصت إهداء الكتاب لأم الجميع فيها، وهي الحاجية (كواكب هاتف العبيدي)، وحيثيات الإهداء موجودة بين السطور.

والشكر موصول لرفيق رحلة بغداد -ومحطات أخرى مهمة- الصديق العزيز الأستاذ الدكتور خالد يسلم بلخشر لتقديمه لهذا الكتاب، الذي هو قريب من تفاصيله، بل هو شاهد ملك على المرحلة التي تداعت فيها الأوضاع الأمنية في بغداد بعد خروجي منها.

وبقيت كلمة اعتذار لمدينة بغداد لكلماتي المقتضبة على تفاصيلها الكثيرة الرائعة، وهذا ليس تقليلاً في حقها، أو من تاريخها الحضاري العميق؛ إنما هو ظني الذي ظننته هو أن لطف الإشارة قد تغني عن سعة العبارة، لهذا اكتفيت من العقد الثمين برؤية ما أحاط بالعنق.

عبدالله

بغداد .. عتبات دافئة

أحببْتُ مدينة بغداد، في جامعتها تتلمذْتُ على يد نخبة من أساتذتها، تعلَّمْتُ منهم مما تعلمْتُ أنَّ العلم والتواضع سمة من سمات الكبار، وما يزال التواصل مستمرًا مع من ارتبطْتُ معهم بعلاقات علمية وإنسانية، ربما يتباعد زمان الرسائل، لكن وصولها يجدِّد صدق التقدير، ويؤكد على متانة الاحترام، وارتبطتُ أيضًا بعلاقات اجتماعية مع بعض العائلات البغدادية، فكنت مع صديقي الدكتور المهندس صبري عوض التريمي طرفًا فيها، وطرفها الآخر أسرة الدبلوماسي (منصور العبيدي)، الشقة التي استأجرناها من هذه العائلة الكريمة الطيبة تقع على السطوح في الدور الثاني من فلَّتهم التي تقع في (ساحة بيروت) على شارع فرعي يوصل إلى شارع فلسطين الواسع والمزدحم بالحركة.

كانت البداية مبهجة، ومبشرة صنعتها الصدفة، فقبل تسلُّمنا مفتاح شقتنا ساد جو من المرح في مكتب السمسار (أبو كمال)؛ فقد علقت في الجدار خلف مكتبه لوحة بخط عريض مكتوب عليها :(الدلالة اثنان ونصف لكل طرف)، وبعد توقيعنا العقد وإبرامه قلت للعم (أبو كمال) بما يشبه الجد: أين حقُّنا من السمسرة (الاثنان والنصف)؟ قال بلهجته الدراجة: مش فاهم هذا عليكم، قلت: اقرأ اللائحة جيدًا فهي لكل طرف، وليس على كل طرف، أو من كل طرف، فضحك ضحكة مجلجلة وكأنه لأول مرة يقرأ العبارة المعلَّقة لسنين فوق رأسه، طبعًا دفعنا الدلالة لكن العم أبو كمال غيَّر النص وتعمَّد دعوتي لأشاهد التغيير، وكانت هذه الطرفة مفتاحًا لعلاقة عابرة، كسبنا منها أكوابًا عدَّة من شاي الاستكانة البغدادي اللذيذ عند مرورنا بجوار مكتبه القريب من شقَّتنا، وبين حين وآخر أشاغب العم أبو كمال وأطالب بحقنا القديم فيقول بابتسامة عريضة وبلهجة بغدادية طروبة: (يا معوّد اللَّوم على الخطاط).

كنت وصديقي في الثلاثينيات من عمرنا المديد بإذن الله، كان منزلي منها آخرها، ومنزله منها أولها، في هذه المرحلة العمرية كنا على درجة من النضج، الذي انعكس في تعاملنا مع جيراننا، وفي انتظام حركتنا سواء عند ذهابنا إلى الجامعة، أو عند ارتيادنا المساجد، وهذا ساعد على تعزيز القبول المجتمعي الصغير لنا، وأظهرنا بوصفنا جيرانًا مسالمين أو في حالنا كما يقال، لكن الأهم من ذلك ترسُّخ علاقة الاحترام مع أصحاب البيت أنفسهم ، وتطوَّرتْ لتتجاوز المصالح المشتركة، وصرنا من أصدقاء العائلة المقرَّبين، لكن المسافة الأقرب كانت مع أم الجميع (الحاجية كواكب العبيدي)، التي ظلت محتفظة على كبر سنها بتقاسيم جمالية لوجهها الطفولي، لكن أجمل ما فيها ذلك النور الذي يظهر على ملامحها، والنابع ممَّا نراه صدق تقرُّبها الى الله، وصلاحها، وحبها للخير، ومع هذا نستشف من حياء كلماتها، حزنًا يتوارى -لعله حزن العراق كلها- من تقلبات الأحوال في تلك الأيام الصعبة، حيث الحصار الاقتصادي الدولي الظالم على بلاد عامرة بالخيرات فوق أرضها وتحتها.

كنا نقيم في شقَّتنا بما يشبه الكيان المستقل؛ فلنا مدخلنا الخاص، ونعيش فيها بكل مصالحها، لكن بين الفينة والأخرى نتبادل الزيارات، ووجبات الطعام، وكانت الكفة طبعًا لصالح العائلة، ولاسيما عند إرسالها المحاشي العراقية المتنوعة، ورغم انشغالاتنا بالدراسة، واختصار ما نطبخه بما هو مهم فقط ، قررنا رد العطاء بالعطاء، لهذا شمَّرنا عن ساعد الجد، وطبخنا الفول المدمَّس معزَّزًا بالبهارات المكلاوية الساخنة (التكشونة – القلابة)، وتم إرسال حصة كبيرة مع الخبز العراقي الطازج، ورغم ما أظهرت العائلة من استحسان مشوب بالدهشة، اكتشفنا أن معظم الأسر العراقية لا تعد الفول نوعًا من الإدام، إنما يغلى بالماء، ويؤكل كما هو (حبوبًا) دون سحقٍ أو هرسٍ، ولهذا طلبت الحاجية قليلاً من بهاراتنا التي نجلبها من البلاد بعد أن أعجبت بها، الأمر الذي جعلنا نخمّن أن التأثيرات الحضارية الحضرمية الهندية ربما بدأت تغزو المطبخ العراقي.

لكن أكثر ما لفت نظرنا في اختلاف ثقافة الطعام بين المطبخ العراقي والمطبخ الحضرمي هو طريقة طبخ إدام الخضار، فعند

العراقيين يتكون الإدام من صنف واحد فقط، كأن يكون من البطاطس مع الصلصة، أو الباذنجان مع الصلصة، وهكذا البامية أو الجزر، وهي طريقة لا تستسيغها كثيراً البرمجة الغذائية لأمعائنا، لهذا فكَّرنا في هجمة مرتدة، وعزمْنا على العودة إلى التقاليد الحضرمية، لطبخ الإدام المشكَّل من الخضروات المجتمعة في إناء واحد (الصانة)، ويقال لها في عدن (الصانونة)، ولتحقيق الفكرة اشترينا الأغراض اللازمة وبجهد مشترك - تم الجمع فيه بين المنهج التاريخي، والمنهج الهندسي التقطيعي مع التعزيز بقطع من اللحم -، فنجحنا في مهمَّتنا وقدَّمنا خلاصة جهدنا، وغاية خبرتنا لجيراننا لعلَّها تنال رِضَاهُم، وتعادل كفَّتَي الميزان، أو في الأقل تخفِّف الفروق بينهما.

وما لم نكن نتوقعه أن هذه الخليط بين عناصر تختلف في الطعم واللون كان أيضًا غريبًا على المائدة العراقية، لهذا استقبلتْنا الحاجية بحفاوة بعد صلاة التراويح، وبعد كلمات الثناء المتوقعة منها على اختراعنا (الصانة) تساءلتْ بدهشة عن اسم الطبخة؟!، فقلنا لها: هي من الوجبات الشعبية في البيوت الحضرمية، والعدنية،

وحقيقة الأمر لا نستطيع الجزم بمدى استحسان المائدة العراقية لهذا الصنف من الطبيخ المزدحم بالخضروات، لكن عندما بادلونا بعد ذلك (صانتنا) (بصانتهم) المقلدة لها، وقفنا أمام نتيجتين كل واحدة منهما أحلى من الثانية، الاحتمال الأول: أنهم استحسنوا الطريقة، وهذا نصر للمطبخ الحضرمي التقليدي، والاحتمال الثاني: أنهم آثروا تقديم ما نستحسنه على ما يستحسنونه كنوع من جبر الخواطر، وهذا انتصار لقيم الأثرة غير الغريبة على العراقيين الأُصلاء، وأيًا كان الاحتمال الأقرب للصواب، فإن السمو الأخلاقي يصل إلى أعلى مراتبه عندما يكون العطاء – قليله أو كثيرة – بنفسٍ هَنِيَّةٍ، وروح كريمة، وقلوب عامرة بالمحبة والخير.

* * *

بغداد.. الليل والعم قيس والكلاب

كانت بغداد، وربما ما تزال، تحمل في وجهها عذرية الزمن وعطره، ورائحة القباب والمآذن الشاخصة القديمة. بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على شكل دائري وكان ذلك اتجاهاً جديداً في فن العمارة الإسلامية. وفي بداية ستينيات القرن الماضي تغزل فيها نزار قباني بقصيدة ومما قاله فيها:

عيناك يا بغداد منذ طفولتي شمسان نائمتان في أهدابي
لا تنكري وجهي فأنت حبيبتي وورود مائدتي وكأس شرابي
بغداد جئتك كالسفينة متعبا أخفي جراحاتي وراء ثيابي
بغداد طرت على حرير عباءة وعلى ضفائر زينب ورباب
بغداد يا هزج الأساور والحُلَى يا مخزن الأضواء والأطياب

بغداد هي.. الخلفاء، الدخلاء، السلاطين، الملوك، الجمهورية، وبغداد الآن.. جرح في الزمان؟!

بغداد ٢٠٠٢م، شارع فلسطين، حي المهندسين، تم التوقيع على عقد الإيجار في منزل العم قيس، وهي شقة في الدور الثاني من الفيلا. الشقة تتكون من غرفتين على السطوح، البغداديون يفضلون الدور الأول لأسباب تتعلق بالمناخ. العم قيس مهندس معماري عراقي متقاعد (شاب) في أواخر الستينيات من عمره، قسمات وجهه المرسومة والمنتظمة تنم عن وسامة صارخة. ذات ليلة أخبرني أنه منذ وقت قريب فارق ليالي الأنس مع الأصدقاء وال... بعد أن أدّى فريضة الحج.. روحه الشبابية وغمزاته ولمزاته تجعلني أشك في رواية الاعتزال عن تلك الحياة.

طورت الأيام علاقتي مع العم قيس، وبعد أن وثق العم قيس في شخصي (ووثقت فيه) كان كثيراً ما يدعوني للجلوس بجانبه في حديقة منزله. وكنا نستمع بصوت معقول لإذاعة لندن وخاصة أخبار العراق الساخنة، وتدور بيننا حوارات تحليلية تبدأ ولا تنتهي حول العراق ومستقبله والحرية الأمريكية المزعومة والمنتظرة، في أحد الحوارات قال لي العم قيس: "اسمع (يا دكتور) نحن صحيح

نتمنى أن يزول نظام البعث في العراق وخاصة الشيخ الكبير وأسرته، لكننا شعب سريع الغضب عندما يرى الجنود الأمريكان يدنسون شوارع بغداد" فقلت له: "يا عم قيس إنني أتفهم مشاعرك وربما لو كنت مكانك لقلت ما قلت، ولكن الجنة الأمريكية محفوفة بالمخاطر". واستطردت: "إن العراق والعراقيين غير مستعدين لقبول حرب جديدة فيكفيهم حربان فاشلتان ما تزال تبعاتهما ثقيلة على كاهل الناس، وهما وإن سكتت مدافعهما فقد أسكتت في الوقت نفسه روح العراقي الأبية وجعلته محاصرًا في وطنه وفي نفسه.. إن الحل ليس عند الأمريكان وليس في حكم البعث، الحل عند الله.." لم تتأخر ابتسامة العم قيس عن ابتسامتي، وسكتنا برهة.. إن ثقافة الخوف في مجتمعات الاستبداد تجعل الناس البعيدين عن السلطة (صغيرهم وكبيرهم) أكثر قدرة على قول ضمنية الكلام وتجنب ظاهرة.

عندما أفرغ من العم قيس يتوجب الأمر الاستعداد لمواجهة أصدقاء مجاورين، إنهم كلاب الجيران وعددهم خمسة (أم وأطفالها).

داخل سور الفيلا وخارج مبنى البيت، يوجد السلم الحديدي الموصل إلى سطح البيت ومنه إلى شقتي، ولأن السلم يقع بالقرب من فيلا الجيران لتلاصق حوشيهما من هذه الناحية فإن المسافة بيني وبين الأصدقاء لا تتعدى المترين، وهذا التقارب الجغرافي خلق علاقة خاصة بيننا، فالأصدقاء لم يبخلوا منذ اليوم الأول في أداء واجب الترحيب والتوديع عند صعودي أو نزولي من السلم بوساطة النباح المزعج، ولأن المسافة قريبة فكان صوتهم يخترق أذني بشدة، وأحيانًا يحدث عندي نوع من الاهتزاز الداخلي عندما أنسى هذا الاستقبال.

في البداية كنت أصبر نفسي بالقول: إنني حديث العهد وإن الأمر يحتاج بعض الوقت حتى يفهم الأصدقاء أن الغريب أصبح مقيمًا، ولا داعي (لحفاوة الاستقبال)، وعندما أصروا على ما هم عليه بدأت في التفكير في المواجهة والبحث عن الحلول. وقد مرت العلاقة بيني وبين هؤلاء الأصدقاء بثلاث مراحل:

- **مرحلة الشكوى.**
- **مرحلة الصداقة.**
- **مرحلة العداوة والخداع.**

• مرحلة الشكوى:

في المرحلة الأولى شكوت عند العم قيس وأخبرته أن يشكر بالنيابة عني الجيران على حسن الاستقبال والتوديع الرسمي والمنتظم.. ضحك العم قيس وقال: إن جيرانه من مسيحيي العراق قد تعرضوا لحادثة سرقة في بيتهم وإن بقاء الكلاب شكل من أشكال التنبيه والحماية لهم، ثم نصحني بعرض المشكلة على الجيران والتفاهم مباشرة معهم.

عصر يوم جديد وقفت بالقرب من الباب الخارجي لمنزل الجيران عندما لمحت أن أصحابه يستعدون للخروج، وعندما رأتني السيدة أخذت ابنها ودفعت به إلى مكان قريب من زوجها، حينها أدركت مدى الخوف والرعب الذي تعانيه هذه الأسرة الطيبة، والتمست لهم العذر.. بعد نصف دقيقة جاءني صاحب البيت مهرولاً ومبتسمًا وبدا كأنه على دراية بالشاكي والمشتكى منه والشكوى، ومع هذا أخبرته بما عندي وأعربت له عن تفهمي لاحتياطاتهم الأمنية،

واقترحت عليه بقاء الكلاب على سطح منزلهم مع ربطها بحيث لا تستطيع أن تكون قريبة من سطح منزلنا وتعجز من أن تدلي برأسها وأيديها بمحاذاة السلم. ولكنه بدبلوماسية وخبث اقترح حلًا آخرَ وهو رمي فضلات ما آكله في سطح منزله قل أو كثر، وأن هذا ربما يفتح مجالًا جديدًا للصداقة، وحقيقة الأمر أعجبني المقترح وعلى العموم نجرب..

• مرحلة الصداقة:

تعودت بعد أن أفتح باب شقتي بثوانٍ مشاهدة الأصدقاء على استعداد لأداء معزوفة الوداع، ولكن تغير الوضع بعد أن نفذت مقترح جاري، إذ أسهمت رشوة الصداقة في خلق علاقة مقبولة بيننا، سكتت بموجبها الأبواق المزعجة إلى حين! وحالة السلام الجديدة جعلتني أشاهد أحيانًا تفاعل الأصدقاء مع هذه الرشوة، وما لفت نظري أنانية الأم فلا يجرؤ الصغار على الاقتراب من الطعام حتى تأخذ حاجتها، وأمام هذه الأنانية المفرطة، ولتحقيق مبدأ العدالة

بين الأصدقاء تعمدت رمي الرشوة على دفعات وفي أماكن متفرقة. وقد حالف هذا الإجراء نوع محدود من النجاح، ومع هذا كان الصغار لا يجرؤون على الأكل المرمي إلا بحذر وخلسة. وزيادة مني في توثيق عرى الصداقة تعمدت مداعبة وملاطفة الأصدقاء، وحتى هذه اللحظة كنت أعزو هذا النجاح لجاري الطيب، فقد جعلني أصيب هدفين بسهم واحد: الهدف الأول هو التخلص من الزبالة بأبسط الطرق، والثاني المساهمة في إطعام حيوان وفي ذلك من الفضل والثواب ما فيه، وإلى جانب ذلك انتهت المشكلة.

وهكذا طعم الجميع حلاوة الصداقة وشهدنا أيام السلام، حتى كنت أظن أنهم يؤدون دور الحراسة لي إلى جانب الجيران. ولكن هذا الاعتقاد الطيب المتفائل تجاه هذه الصداقة (المفروضة) لم يكن راسخًا عند الطرف الآخر.

لأسباب لا أعلمها بدأ يتغير سلوك أصدقائي! لعل الطمع دخلهم، وأرادوا المزيد؟ أو لعلهم شعروا أن اتفاقية الغذاء مقابل السلام لم تعد كافية لعل...؟ المهم بدأ الأصدقاء صراحة يعبرون عن

سخطهم بشكل تدريجي مع إحداث أصوات متقطعة ومنخفضة، ولكنها عبارة عن رسائل تحذيرية فهمتها في حينه. لكنني لن أقبل الابتزاز.. وعندما لجأ الأصدقاء إلى التصعيد اضطررت إلى الدخول في المرحلة الثالثة..

• مرحلة العداوة والخداع:

كانت العادة في أيام السلام بعد فراغي من تناول الغداء رمي رشوة الصداقة بصورة دائمة، ويسمح لي ذلك التصرف بالخروج بهدوء لأداء صلاة العصر في المسجد مع نظرات خاطفة.

في المرحلة الجديدة تغير الوضع وبدأت تسمع أصوات مزعجة مطالبة بالمزيد، وكما تغيروا، تغيرت! وآثرت تقديم الرشوة عند خروجي لأداء صلاة العصر. كنت أتألم عندما أشاهد الأصدقاء في انتظار الوجبة في الوقت المعتاد. وعزائي أن الصداقة التزام، وحقوق وواجبات. أفلح هذا الإجراء مؤقتًا، ثم استأنف الأصدقاء صوت العداوة والسخط دون اعتبار لأي شيء ووصلت الأمور

إلى درجة خطيرة من التدهور. إذن أعلنوا الحرب من طرف واحد! فضّلت التروي لعل في الأمر شيئًا ما! دفعت بالتي هي أحسن، دون أن أقدم تنازلات. لقد اعتقد الأصدقاء أن ما يقدم لهم حق وتجرؤوا على طلب ما وراء ذلك. كان لا بد من تدارك الوضع واتخاذ إجراءات مناسبة.

بعد أن فشلت سياسة السلام مقابل الغذاء وتعمد الطرف الآخر التصعيد غير المبرر، بدأت من جانبي في اتخاذ إجراء تأديبي وهو منع الطعام لمدة يوم أو يومين، ولكن رسالتي لم تفهم بل ولم يكترث لها، وخلصت إلى اتخاذ إجراء ثابت وهو الاستمرار في خطب ود الصداقة مهما كان تفسير ذلك عند الطرف المقابل. وحقيقة الأمر كان القرار قاسيًا بالنسبة لي لأن المعادلة تحولت إلى الغذاء مقابل الأذى!!! وتذهب الشطحات بي بعيدًا عندما أبحث في تفسير الأمر وتصل في ذروتها إلى الظن أن هناك مؤامرة، وما أكثرها في تلك الأيام!

رغم قبولي بالهزيمة أو هكذا شعر الأصدقاء فقد حاولت التقليل من مشاعر النصر المطلق بأن لجأت إلى أسلوب الخداع، كنوع

من التسلية وتجنب الأذى. ففي البداية حرصت عند مغادرتي للمنزل أو رجوعي إليه ألَّا أحدث صوتًا ينبه الأصدقاء لقدومي، وعندما يشمون الرائحة الخفية يتقدمون بسرعة فائقة، ولكن يفشلون في تلبية رغباتهم الكلاسيكية في الاستقبال والتوديع، لقد نجحت الخطة لأيام.. يبدو أن مجلس حرب الأصدقاء رفض الهزيمة وقرر اتخاذ أساليب جديدة تحقق النصر، ولاحظت ذلك من خلال تردد أصدقائي على الجانب القريب من السلم فيما يشبه الدورية، ولأنني منتظم في أوقاتي فقد سهل لهم ذلك فرصة المراقبة والمتابعة، كما سهل مهمتهم -إلى جانب ذلك- استخدامي لنوع معين من العطر، الأمر الذي مكنهم من رصد تحركاتي قبيل الدخول إلى الفيلا، فما إن أدخل من البوابة الرئيسة إلا والرؤوس متدلية في سخرية واضحة، وعندما أغير نوع العطر يفشل الاستقبال من بعيد.. إن أصدقائي مصرون على الانتصار في حرب فرضوها وأعلنوها وكنت مصرًا على بقاء علاقة حسن جوار، لهذا استمررت في رمي رشوة الصداقة والتحرك بشكل عادي دون اكتراث لمسرحية اللقاء والوداع.

لكن لا بأس في مزاح لغرض التسلية وأثبت من خلاله أن استطلاعاتهم وراداراتهم يمكن اختراقها أو تعطيلها ولو مؤقتًا، وأن نصرهم المزعوم في حقيقته منقوص وأنه نابع من استسلام اختياري. المهم كان ليل بغداد الطويل وقتًا مناسبًا للتورية والمزاح. عندما أعود إلى البيت في المساء أستفيد من دعوات العم قيس لي بالجلوس بجانبه في حديقة المنزل، وأتعمد فتح مواضيع متعددة، ليطول انتظار الأصدقاء ويعتريهم الملل والتعب. وفي وقت مناسب أصعد بهدوء وخفة إلى السلم وعندما أكون وليتهم ظهري يتنبه الجميع ثم أسمع أصواتًا غريبة لعلها نبرات التشاجر والعتاب فيما بينهم.. أو لعلها نبرات اعتراف بهزيمة جولة وتوعد بجولة جديدة، الله أعلم.

ولأننا في سنوات الحصار على بغداد، فإن هناك فواتير كثيرة لابد أن يدفعها أهلها والساكنون فيها، من ذلك الانقطاع المتكرر للكهرباء، ويأخذ كل حي سكني نصيبه من الظلام وفق نظام حصص منتظم، وعند ما تأتي حصتنا من الظلام اعتدت السير والجلوس على سطح المنزل أستمع للراديو. ويشاركني بل يؤنس وحدتي

الأصدقاء (الأوفياء)، الذين يساورهم الشك بأنني ربما أغادر المنزل، لهذا تظهر الرؤوس بصمت وتختفي وعندما تقترب خطاي باتجاه السلم يشعر المكلف بالمراقبة بالخطر ويستعد، وفي حقيقة الأمر تعلم الأصدقاء من تكرار تلك الخطوات التروي وعدم إعلان حالة الاستنفار إلا للضرورة القصوى. ومن جانبي التزمت بقواعد اللعبة ولم أقترب من خط يمكن أن يستفز المراقبين وذلك حرصاً مني على استتباب الهدوء في ليل بغداد الحالك والطويل.

وأحيانا أستفيد من سواد الليل بالجلوس على كرسي في سطح المنزل دون حراك لفترة من الزمن حتى أرصد مدى قدرة الأصدقاء على اكتشاف أمري، وبالطبع يحدث استنفار لرصد مكان الهدف وتيقن الكلاب أن في المكان القريب غريبًا وإن فشلت عيونها في تحديد مكانه تستمر في حركة دؤوبة، وعندما أشعر بالنجاح أتعمد الظهور حتى لا أفقد أصدقائي الثقة بأهم حواسهم ثم يعودون لشأنهم.. بينما أستمر في التأمل والدعاء إلى الله أن يأتي النهار ويزول ليل بغداد الطويل!

الشحر في بغداد.. المريض والمداوي

في تسعينيات القرن الماضي وبداية الألفية الثالثة قدر لبغداد أن تكون المريض والمداويا! أما مرضها فلم تشف منه بل زادتها الأيام مرضًا على مرض، ولم يأتها بعد الطبيب المداوي. أما أنها كانت المداويا فلأنها فتحت ذراعيها للباحثين عن العلاج والشفاء من أهل اليمن وخاصة قبيل (الفوضى الخلاقة).

وقصة العلاج في العراق ترتبط ارتباطًا عضويًا بمدى شجاعة الريال اليمني أمام زملائه من العملات الأخرى، وليس للاعتبارات القومية العربية التي احتضنتها بغداد بصدق وقتذاك. فالروبية الهندية معشوقة الريال اليمني السابقة اشتد عضدها (وعزّوها) أهلها وصار سحرها بعيد المنال على مدعي البطولة وحُطاب الليل، ثم ملأ عين الهندية فرسان آخرون. ولأن ريالنا لا يقوى إلا على من هو أضعف منه، شد الرحال إلى بغداد، وفيها تبختر وفرش ريشه حينًا

من الزمن استرجع خلاله ظاهر شجاعته غير مصدق، قبل غيره، أن دينار بغداد الأبي يتودد إليه ويطلب رضاه، إنه غدر الزمان! بعد الفوضى الخلاقة توالت هزائم ريالنا أمام الدينار الأردني، وكان يشهد المعركةَ غير المتكافئة الجنيه المصري الذي استهواه ريال اليمن لغاية في نفس يعقوب، ثم تصادق الصريعان.

نأسف عزيزي القارئ لهذه المقدمة التي لا مناص من ذكرها، ونعود إلى قصة المرض والعلاج، وكما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد أصبحت بغداد مكانًا مناسبًا لطالبي الشفاء من الأمراض التي "حار فيها الطبيب المول والمتعلم العارف" في الوطن. وتكاد أن تكون الرحلات إلى بغداد أسبوعية، كنا نتردد على الإخوان القادمين من حضرموت فهم من بقية الأهل ونسمة الوطن، وغالبًا ما يكون اللقاء في أول أيام الوصول حميميًا، ويتبادل القادمون الجدد والسابقون المعلومات عن المستشفيات وأفضل الأطباء... إلخ، ونتدخل نحن الفضوليين عندما نرى ضرورة للتدخل. ولكن لحظات اللقاء القصيرة السعيدة ما هي إلا مشهد في رواية

إنسانية سرعان ما تتكشف فصولها، تدمي في مجملها القلب وتكدر الحال وتسهد العين، ويزداد الألم عندما يصل إلى علمنا من الحالات ما هو ميئوس من شفائها، أو أن من القادمين من باع كل ما يملك، وينتظر بعد رحلة العلاج الغامضة أغلال الديون، ودائمًا أسائل نفسي: لماذا؟ وإلى متى؟

كنت أمام معادلة صعبة لم أوفق فيها: بين رغبتي في عيادة المرضى خاصة المعارف والشد من أزرهم وبين محاولة ترويض الألم النفسي الذي تحدثه قصصهم الحزينة والحد من تأثيرها على دراستي العليا. ثم حدثت حكاية لها دلالتها أعادت نوعًا من التوازن لهذه المعادلة، وكانت لي دواء وعزاء.

ذات يوم طلب مني أحد الزملاء، وكان يدرس في البصرة، مرافقته لزيارة مريض شحري من مدينته في مستشفى بعيدة عن مركز المدينة، وعندما أخبرني بالمرض ترددت في البداية فكان يعاني من الشلل النصفي (قدم به من الشحر) وسرطان المستقيم (نسأل الله العفو والعافية)، وأُجريت له عملية استئصال المستقيم.

فقلت لزميلي الشحري: "سنذهب إلى المستشفى على أن يعفيني من زيارة المريض بحجة أنني لا أستطيع مشاهدة هذا المنظر المؤثر"، واتفقنا.. بعد أن سألنا عن المريض في الاستقبال وصّلت زميلي إلى الغرفة ثم توجهت إلى مدخل المستشفى حسب الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق فشل عندما خرج أحد المرافقين صدفة وعلم أنني مرافق لضيفهم، وأمام إصراره على زيارتي للمريض لم أستطع الرفض ولكنني قلت في حال نفسي سأسلم على الحاضرين وسأغادر على الفور بأي حجة. ما إن فرغت من مصافحة المرافقين حتى بادرني المريض نفسه ببعض الأسئلة التعارفية عن بعض الشخصيات المكلاوية التي يتشابه لقب عائلتي مع عائلاتهم، وكنت أعرف البعض منهم. كان صوت المريض متقطعاً ولكن كان واضحاً، ولأنني الخامس بين أربعة شحريين كان نسيم شحرهم هو السائد وحضرت سعاد بطرائفها وحكاياتها ونسيت المؤامرة. ثم إن المريض يشارك بالنكتة والتعليق فترتسم الابتسامات وتلعلع الضحكات وتأبى سعاد إلا أن تكون داخل بغداد وتزيح عنها كل شيء حتى المكلا.

كانت الصورة المسبقة في مخيلتي أنني سأجد مرتعـًا كثيفـًا من الكآبة والحزن والصمت والجمود، ولكن.. لأول مرة في حياتي أشعر أنني صغير بل وأتصاغر بينما الشحر تكبر وتتكابر ومن حقها. وطوال رحلة العودة لم يكن شرودي كالعادة مع المريض وأهله بل تقاذفني الخواطر، ثم سألت نفسي من كان المريض؟ فجاءت الإجابة من أعماقي: (.....)!! فقلت: لقد صدقتني نفسي القول.

* * *

يوم حزين ويوم (رمضاني) سعيد

ذات مساء وعلى غير العادة طرق باب بيتنا خالي بصحبة خالته، كانا مُثقلَينِ بخبرٍ حزينٍ، عندما شاهدتْ أمي (رحمها الله) هذا الوجومَ أدركتْ أنَّ هناك أمراً جللاً لهذا لم تساعد ضيوف الليل على توصيل الخبر بالأسلوب التدريجي المعتاد فنزل الخبر كالصاعقة (أخي صالح مات) فانهارت أمي وعلاء صراخها، وغير بعيد من هذا المشهد كان حال والدي (رحمه الله) حال الوالدة، فرغم ما يبدو عليه من القوة والصلابة فإذا الدموع تتفجَّرُ من عينيه ووصل بها إلى أعلى مراتبه الإنسانية. منذ تلك الليلة الليلاء التي كنتُ شاهدًا على كل تفاصيلها العميقة بالحزن، والمزلزلة للأبدان تغيَّر بي الحال كل الحال.

كان ترتيبي الابن الخامس من حيث تسلسل هرم العائلة المكونة من ستة ذكور تليهم خمس بنات. بوفاة أخي صالح (رحمه الله)

الذي يكبرني بسنة صار ترتيبي الرابع، كان أخي الأكبر هلال – في تلك الليلة الحزينة – طالبًا في كلية الاقتصاد جامعة عدن، وأخي أحمد مدرسًا في قرية (غرير) بمحافظة شبوة، وأخي خالد مجنَّداً إجباريًا في جزيرة ميّون (سلاح المدرَّعات)، وكنتُ مع أخي عبدالحكيم الذي يصغرني بسنة طالبَينِ في الصف الثاني الثانوي لهذا وضعتني الأقدار فجأةً في موضع كبير العائلة، والمدبِّر لأمورها قبل أن يتماسك أبي وتعود إليه الولاية، وقبل أن يتقاطر إخوتي الكبار إلى مدينة المكلا ويلتئم شمل العائلة المكلومة.

وتدفقت السنون وغاصت العائلة في تفاصيل الحياة المعتادة في بيوت (الطبقة الوسطى) التي لا تخلو من قصة الفرح والألم والطموح والعثرات، وكانت العائلة قد سلمت بقضاء الله وقدره فالأمانة عادت لربها لكنَّها تركت في القلوب الراضية غصَّة وأيَّما غصَّة لا سيما عندما ينهمر حديث الذكريات عن (تاريخ) العائلة ثم تستمر الدنيا في مجراها ومرساها، وتمضي كما قدَّر لها ربُها وسواها.

في السادس عشر من شهر أكتوبر ٢٠٠٣م كنتُ على موعد في يوم سعيد في حياتي الدراسية العليا، ففيه تمت مناقشة أطروحتي للدكتوراه في كلية التربية ابن رشد جامعة بغداد، في تلك الأثناء كانت بغداد تحت الاحتلال الأمريكي وكنتُ ساكنًا مع صديقي (الدكتور) صبري عوض التريمي في بيت يقع بالقرب من ساحة بيروت بشارع فلسطين، في هذا البيت العراقي الأصيل كانت الحاجية (كواكب العبيدي) أيقونته وقلبه النابض بالبشاشة. في صباحية يوم المناقشة وبتكليف شديد المحبة منها أمرت ابنها (أحمد العبيدي) بأن يكون مرافقًا بسيارته للموكب المتوجِّه لقاعة المناقشة بكلية التربية ابن رشد رغم أن سيارة الصديق (الدكتور) خالد يسلم بلخشر جاهزة للتحرُّك وتتسع للجميع، المهم تحرَّك الموكب مخترقًا شوارع بغداد المحتلة، وبعد المناقشة التي تكلَّلت بالنجاح كانت عائلة العم منصور العبيدي في غاية السعادة، فقد عبرت العلاقة بيننا إلى أبعد من مسألة السكن والإيجار. وفي مساء ذلك اليوم كنت على موعد في بيت هذه العائلة الكريمة لاحتفالية

مصغَّرة لكنها ذات رمزية باذخة، وفي تلك الليلة المنورة بالفرح ذكّرتني سيدة البيت بدعائها لي في حجتها الأخيرة لبيت الله الحرام وهي أمام الكعبة المشرفة مع الدعاء ذاته لأبنائها سواء بسواء فحمدنا الله على الإجابة وشكرناه.

وفي سياق هذا الفرح المتصل أو بالأحرى واحديته كانت مدينة المكلا تنتظر، وكانت أمي تجهِّز بسريّةٍ تامَّةٍ لساعة الوصول ولحظة اللقاء، وفي أجواء رمضانية أكملت معاملاتي كلها في بغداد، وصار بيني وبين مدينتي المكلا مسافة الطريق التي تبدأ من بغداد مرورًا بمدينة عمَّان ومنها إلى مطار الريَّان، ومع أنه مستحب الإفطار في أثناء السفر في شهر رمضان الكريم لكنني آثرتُ الصومَ في رحلة جميلة طوت فيها الطائرة المسافات البعيدة، واختصرت الزمن.

في عصرية رمضانية وبعد أن تمَّ إعلان وصولي بأبواق سيارات المستقبلين صعدت درج بيتنا صعود الفاتحين، وأول ما لمحتني أمي رجَّت المكان في نهار رمضان بالزغاريد، وأصل الحكاية أنها (رحمها الله) نذرت في سرِّها مما نذرت إليه عند عودتي سالمًا غانمًا

أن تطلق هذه الزغاريد حمداً لله وشكراً له. عندما احتضنت والدتي وتكحلت بدموع فرحتها تذكرت ذلك اليوم البعيد الحزين، ورَجَوْتُ الله في أعماقي أن أكونَ مصدرًا متجدِّدًا لهذه السعادة الغامرة، وقد تشابهت بيننا الأولويات في المشاعر وتقدير الأمور حينًا واختلفت حينًا آخرَ؛ فعند أمي سلامة الوصول من العراق الجريح تتقدم عندها على فرحة الإنجاز العلمي، في حين كانت عندي فرحتها تتقدم عليهما معًا وكله فرح، وكما كان وجع قلب أمي على فراق أخي صالح يتقدم عندي على وجع قلبي على فراقه وكله وجع، فإنه برحيلها تحررت من الشعور بوجع قلبها، لكنني وقعت أسير وجع رحيلها وهو أدهى وأمر، وهكذا تمضي الحياة بحلوها ومرّها وبدورتها المحكومة بإرادة الله وتقديره، ولا رَادّ لحكمه، فكما بكت المكلا ذات يوم من أيام الله زغردت في غيره بعد احتفال تمهيدي في بغداد في يوم مشابه من أيام الله .

"وتلك الأيام نداولها بين الناس"

مع بعض تفاصيل بغداد

ساعد سكننا في شقة داخل بيت أسرة عراقية على سلاسة اندماجنا في المجتمع المحلي البغدادي، فوسط الناس تهيأت فرصة للقاءات تعارفية مباشرة، وغير مباشرة، وفي المقابل فضل بعض زملائنا من جامعة حضرموت السكن في غرف فندقية، ولبثوا فيها سنين عدداً، امتدت عند البعض منهم إلى سبع سنوات أو ثمان مما يعدون، وهي مدة دراستهم للماجستير، والدكتوراه، ولعلهم وصلوا بذلك إلى ما يمكن وصفه (إدمان الغرف)، ففيها ينامون، ويطبخون، ويذاكرون، ويتسامرون. مع أن فارق الإيجار بين الشقق الواسعة المفروشة، والغرف الفندقية الضيقة يسيرٌ، لكن للناس فيما يختارون مذاهب.

تتكون مدينة بغداد الكبرى من أحياء سكنية كثيرة، يقارب بعضها وصف المدينة داخل المدينة، وكما توجد الأحياء ذات التصنيف المذهبي من حيث نسبة عدد سكانها، هناك أغلبية منها

يتعايش فيها البغداديون على قاعدة احترام الخصوصيات الثقافية والعرقية طالما هي لا تفرض نفسها على الآخرين. وتجاور في حيّنا السكني السني والشيعي والكردي والتركماني وغيرهم، ويصعب على أمثالنا من المقيمين العابرين التمييز بينهم إلا عندما تقرأ في واجهات بعض المنازل عبارات مثل: (يا علي) (يا حسين) أو عند تبادل الوجبات الغذائية في مناسبات الشيعة السعيدة منها، والحزينة، وهي الغالبة عندهم، وأسهمت القبضة القوية للنظام العراقي في استتباب الأمن، واحترام الجميع للنظام العام، لكن هذا لا يلغي شعور أغلبية العراقيين بالمرارة من وطأة تلك الأوضاع الخانقة، ورغبتهم الملحة في تبدّل الأحوال.

تمضي أيامنا في المجتمع العراقي بأريحية، والتصنيف الرسمي لنا (مواطنون عرب)، وهذا التصنيف ليس بالغريب على دولة يتبنى حزبها الحاكم فكراً قومياً أشهر شعاراته (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة)، لهذا يعامل العربي معاملة العراقي سواء بسواء إلا في حالات خاصة، فمثلاً الحصة التموينية التي يحصل عليها

العراقي بمبلغ رمزي يحصل عليها (المواطن العربي) مثل العراقي تمام بتمام، وهكذا في كثير من المعاملات وفرص التعليم، والعلاج الحكومي، وهذا التبني العروبي الحكومي عزز شعور الطلاب العرب بنوع من الاطمئنان، ولكن هذه المكانة بقوة الدولة جعلت بعض العراقيين يتجنبون الاحتكاك بهم - إذا لم تكن معهم حجة- حتى لا يتهمون بأنهم معادون لمسار الدولة العام.

ولأننا دخلنا المجتمع العراقي مباشرة من مدينة المكلا إلى قاعات الدرس في الجامعة بغير معرفة سابقة باللهجة العراقية التبس علينا فهم بعض الكلمات، فعلى سبيل المثال في أول محاضرة سمعت المحاضر ينادي زميلاً في الصف بكلمة (باوعني) وردَّدها أكثر من مرة، فشرد تركيزي على حساب المحاضرة، ثم دخلت في لعبة التخمينات وقدرت معناه (انتبه لي) وبهذا قاربتُ؛ لأنها تعني (انظر إليّ)، ومن الكلمات التي فشلت في تحديد معناها من أول وهلة (هوايه)، وتعني (كثير) وتقابلها باللهجة التونسية (برشه) و(وايد)، باللهجتين الخليجية والحضرمية.

أما كلمة (آكو) فقد اكتشفتها في شارع المتنبي عندما كنت أبحث عن كتاب، فكان صاحب المكتبة يقول (آكو آكو) أي: موجود، وكان يقصد موجود داخل المكتبة وليس على المعروض منها في الشارع فأعدت السؤال نفسه فردد (آكو آكو) مع تحريك رأسه من أعلى إلى أسفل، فاكتشفت (السر المكنون)، ويقابل (آكو) قرينتها النافية لها (ما كو)، وعندما تسمع لفظتي (شاكو ماكو) تعني السؤال عن الأحوال، وهل هناك من جديد؟. وكنا نشعر بالنشوة لإجادتنا التحدث باللهجة العراقية، ربما هذا من باب دهشة المختلف. وباستثناء كلمات يسيرة صادفتنا في أول عهدنا في العراق الشقيق،فإن التواصل مع شعبها المثقف كان انسيابيًا، ولهذا بعد أيام معدودات دندنَّا بالبغدادي، وركبنا البحر على مودها، وعلى رأسنا شلیناها.

لكن أبرز مشاهد الاندماج حد (الاقتحام) عندما صرت طرفًا في الجانب العراقي مقابل طرف يمني للتفاوض على إيجار شقة عراقية؛ فعندما تقدم طلاب يمنيون في مرحلة البكالوريوس لتأجير

شـقة أصـدقائنا العـراقيين اشـترطت علـيهم (الحاجيـة كواكـب) حضوري لإتمام (الصفقة)، وبقي الأمر معلقًا إلى أن تسنح فرصـة لتواصلي مع العائلة، أو يخبرني الطلاب بهذا الشرط، وهذا ما تـم، وعلى ذلـك شـددت الرحـال إلـى بيـت الدبلوماسـي العـم منصـور العبيدي، وعملنا جلسة مشاورات استباقية كانت (كلـش) مفيـدة، حددنا فيها ما لكل طـرف، ومـا عليـه، وعنـدما اجتمعنـا مـع الطـلاب في صالون البيت كنت في الطـرف العراقي (المفـاوض) والطلبـة اليمنيـون في الطرف الآخر، وبشفافية طرحت النقاط، ووافق عليها الطرفان، وبقي تسجيل العقد بعـد توقيعـه عنـد الـدلال أبـي كمـال، لتسـتمر الحكايات الزينة في بغداد ، و(هوايه) في بغداد الحكايات الزينة..

* * *

داخل أسوار الجامعة

في شتاء عام ٢٠٠٠م عبرتُ البوابة الكبرى لمجمع كليات جامعة بغداد الكائن بمنطقة باب المعظم، تفاصيل المكان – من مبانٍ متناسقة، وساحات خضراء واسعة، وحركة كثيفة للطلاب – تبعث الشعور بالمهابة، وللوصول إلى وجهتي اخترقت بلطف هذا الجمال المبثوث حتى وصلت مكتب رئيس قسم التاريخ بكلية التربية (ابن رشد)، وقدمت قرار ابتعاثي مع الوثائق اللازمة، وبعد المقاصصة بين المواد التي درستها في مرحلتي البكالوريوس، والماجستير في جامعة عدن، والمواد المقرَّرة في كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد؛ تقرَّر تحميلي مادتين هما: (طرق تدريس التاريخ)، و(تاريخ العراق الاقتصادي)، إضافة إلى المواد المقررة في السنة التحضيرية لمرحلة الدكتوراه، وهكذا في حين كان زملاء الدفعة يغادرون مقاعد الدرس بعد نهاية المحاضرات، كنت أذهب إلى الأستاذين المكلفين بتدريسي المادتين، وفقًا لبرنامج مُوَازٍ تم تنسيقه.

يعد الكثير من الطلاب السنةَ التحضيريةَ مرحلةً حاسمة للحصول على الشهادة الجامعية العليا، وهي سنة إلزامية بحسب نظام التعليم العالي العراقي والأمر بخلافه في الجامعات العربية والأجنبية، التي يسجل الطلاب فيها عناوين أطاريحهم دون المرور بسنة تحضيرية، أو تمهيدية، وكنت في البداية أميل إلى الرأي الذي يعد السنة التحضيرية للدكتوراه غير ضرورية؛ على فرضية أن الطالب بعد الماجستير شب عن الطوق، وصار يمتلك خبرة معقولة في الكتابة الأكاديمية، لكن في داخل قاعات الدرس تغيّرت وجهة نظري تمامًا؛ لما تقدمه السنة التحضيرية من فرص كبيرة لجلوس الطلاب أمام قامات علمية خبيرة، وللطرح المختلف في المحاضرات عن طريق التركيز على قضايا تاريخية تختلف عن المحاضرات التقليدية القائمة على إعادة حشو المعلومات.

وعلى ما في السنة التحضيرية من جهد مشوب بالقلق فإني أعُدُّها محطة استثنائية في مشواري الدراسي؛ ففيها تتلمذت على يد نخبة من مؤرِّخي العراق، الذين يشار إليهم بالبنان، خاصة الأستاذ الدكتور

طارق نافع الحمداني، والأستاذ الدكتور جعفر عباس حميدي، والأستاذ الدكتور كمال مظهر، وغيرهم، وعلى كل ما قدمه هؤلاء الأساتذة الأفاضل من إضاءات فتحت لنا آفاقاً بحثية ومعرفية واسعة، فإني في هذه العجالة (المذكراتية) سأختار من هذه الكوكبة نموذجين انتهجا أسلوب المناقشة (الحوارية).

وأبدأ بالأستاذ الدكتور يقظان سعدون العامر، أستاذ تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الذي يجعل من المحاضرة نشاطاً تفاعلياً، يسهم فيها الطلاب بقسط كبير، عن طريق تكليف كل طالب بكتابة ورقة بحثية بعنوان مركز، ويقوم الطالب بعرض ورقته في قاعة الدرس ارتجالاً، وفي الوقت نفسه مطلوب من زملائه التحضير للموضوع نفسه، والاستعداد لأي تساؤل مفاجئ في أثناء المحاضرة، كان الهدف غير المعلن هو تمكين الطلاب من تنزيل المعلومات الدقيقة من المصادر حسب عنوان البحث، وكذا اختبار مدى قدراتهم في السيطرة، والثقة بالنفس، وهناك صرامة تجاه المتعثر أو من يدخل في تفاصيل بعيدة عن نقطة الموضوع الرئيسة، وعندما دنا دوري - ولعبور هذا الموقف الصعب بسلام - اضطررت (لإجبار)

صديقي في السكن المهندس صبري التريمي ليسمع عرضي التجريبي (بروفه) للورقة البحثية الموسومة: الموقف الفرنسي من ألمانيا (الهتلرية)، مع أنه وبحكم تخصصه الدراسي لا ناقة له في الحرب العالمية الثانية، ولا جمل.

أما في محاضرات الأستاذ الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف؛ فالوضع يتسم بالمرونة والنقاش الفكري المفتوح، وكان جُلُّ ما يهدف إليه من حوادث التاريخ؛ تفكيك المصطلحات، والتقاط الأفكار الجوهرية أو التنبيه لزوايا نظر المؤرِّخين المتعددة للحدث الواحد، أو توضيح قوانين التغيرات الاجتماعية ومسبباتها المنظور منها، وغير المنظور التي لا يلتفت إليها المؤرخون ممن ينظرون للكتابة التاريخية بوصفها سردياتٍ لا غير، تأخذ بعضها بخناق بعض، وكان أستاذنا يتعمَّد في بداية كل محاضرة فتح باب النقاش وفقًا لما يثيره الطلاب من قضايا تاريخية، ولهذا تكون أحيانًا تساؤلاتهم، ومناقشاتهم هي المهيمنة، وذات مرة سألت عن الفرق بين الباحث، والمؤرِّخ؟ فكانت المناقشات هي المحاضرة بوقتها كلِّه.

في تلك الأيام كان العراق يحاول الخروج، من سبيل؛ فالحصار الدولي قارب السنوات العشر، وبدأت تظهر آثاره الوخيمة على كل المستويات الشعبية، والرسمية، ومنها الجامعات لكن البنية التعليمية – من كادر مقتدر، ومبانٍ قائمة، ومكتبات عامرة – ساعدت على تماسك التعليم بمستويات مقبولة، وعزَّزت الأنظمة واللوائح الجامعية من السيطرة على بوصلته. من ذلك كانت وزارة التعليم العالي العراقي ترسل مراقبين سرِّيين مهمَّتُهم حضور المناقشات ورفع تقارير عن سير المناقشات، ومدى انضباطها العلمي، ويكفي الإحساس بوجود عين الرقيب سواء حضرت أو غابت، فالرسالة تصل للجميع بأن الأمور غير سائبة.

كما كانت الرسائل والأطاريح العلمية قبل مناقشتها ترسل بسرية إلى خبير، يحدِّد مدى أهليَّتِها للمناقشة من عدمها، ويرفع في ذلك تقريرًا مفصَّلًا عنها في مدة لا تزيد عن شهر من تسلُّمها لها، وهو يعد المفلتر العلمي الأول، لكن وجهة نظره الإيجابية لا تعني الحكم النهائي عليها؛ فقد حضرتُ مناقشات اشترط لإجازتها

تعديلات كثيرة، وكان هناك شرطٌ في عهد حكم الرئيس صدام حسين لابد منه وهو أن تمر الرسائل العلمية بخبير السلامة الفكرية، المعنيّ فقط بفحص مدى خلو الرسالة أو الأطروحة من أي إشارات تمس النظام وتوجهاته، وغاب ذا الشرط في عهد الحاكم الأمريكي (بريمر)، الذي تم مناقشة أطروحتي فيه.

بقي أن نشير إلى مقارنة بين نظام التعليم العالي في العراق واليمن، وخاصة فيما يتعلق باللوائح المتعلقة بكيفية إجازة الرسائل العلمية، ففي العراق يكون المشرف على الرسالة بعد جلسة المناقشة في موضع الطالب الممتحن، وينتظر مثله ما تسفر عنه مشاورات لجنة المناقشة (ثلاثة في مرحلة الماجستير، وخمسة في الدكتوراة)، ولا يحق له تقييم الرسالة أو احتساب درجات للطالب، في حين أنَّ الأمر في الجامعات اليمنية يقضي بأن تتكون لجنة المناقشة في المرحلتين من ثلاثة مناقشين، يكون المشرف واحدًا منهم، وله حق التقدير (صوت من ثلاثة)، وهو الأمر الذي أسهم في هشاشة المخرجات، ومرَّ الكثير دون عناء، أو قلق مبين.

بغداد.. سنة شيعة

فيما يشبه الوصية غير المكتوبة كانت النصيحة المتداولة للداخلين جمهورية العراق من طلاب العلم، والمرضى مع مرافقيهم؛ هو تجنب الخوض في حديث السياسية من قريب أو من بعيد، فالعراق وقتئذ يعاني من الحصار الدولي، وكانت تداعيات ما بعد تحرير الكويت تفعل فعلها في تهديد الجبهة الداخلية، خاصة بعد ما عرف رسميًا بحركة الغوغاء، أو بالثورة الشعبانية عند المؤيدين لها من شيعة العراق، وعلى هذه التداعيات راهنت الدول المتزعمة للحصار على سقوط النظام من الداخل، أو في الأقل إنهاكه تمهيدًا لغزوه. وقد التزم الجميع بالوصية، بمن فيهم العراقيون فلا أحد يتكلم علنًا في السياسة، أو يناقش الاختلافات المذهبية، أو يحلل ما يعتمل من سيناريوهات محتملة ضد العراق كانت تناقش بقوة عبر القنوات الفضائية، في هذه الأجواء التي تتسم بالترقب لفعل

خارجي كنا نشعر بهيبة الدولة، وسيطرتها، لهذا نتنقل داخل أحياء المدينة إلى ما بعد منتصف الليل بأمان.

يمثل العرب المسلمون الكتلة الكبيرة في المجتمع العراقي، وينقسمون مذهبيًا بين السنة الحنفية، والشيعة الإثنا عشرية (الجعفرية)، وتاريخيًا كانت السلطة على العراق بيد الدول السنية المتعاقبة، وفي مجتمع شبه صامت كنا لا نستطيع من خلال المشاهدة المباشرة رصد المواقف البينية بينهما، لكن نستشف أن الأمور ليست على ما يرام.

على الصعيد الرسمي، وتحت قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي للدولة تحرك العراقيون – العرب – على اختلاف مذاهبهم تحت فكرة العروبة الجامعة، وهي فكرة عقلانية لمجتمع تتعدد فيه المذاهب والثقافات، والإثنيات، لهذا كان التنافس الحزبي هو المحرك لاعتلاء المناصب بصرف النظر عن المذهب الديني للعضو الحزبي، ولا ريب كانت هناك مناصب سيادية (سنية) لكنها في دوائر معينة.

أما على الصعيد الشعبي فإن العلاقات بين أصحاب المذهبين - كما في ظاهر الأمور- تتسم بالتعايش المقبول الذي يصل في أعلاه إلى التزاوج المتبادل فكنّا نسمع عن (الهجين المذهبي) بمعنى الأب سني، والأم شيعية، والعكس، والمرونة في ذلك عند الشيعة أوسع، كما أن ممن ينتسبن إلى أهل البيت (الجعفريات) مباح لهن الزواج من غير الهاشميين (سني أو شيعي) عكس بعض المذاهب السنية التي تشترط الكفاءة في النسب.

من عناصر الاندماج حد الصداقة، وتبادل الود، بين الأسر السنية والشيعية لاحظته في العلاقة اللافتة الممتدة من الطفولة بين شباب بيتنا (السني) وبيت جيرانهم (الشيعة)، وتكون في أجمل مظاهرها عندما يكون السمر مع الشوي في حوش (بيتنا)، ولا أسمع بعد غياب طرف من السامرين كلمات مغايرة، ولأن الصداقة أحيانًا بالعدوى تأتي أحيانًا مناسبات أكون مع جارنا الشيعي في جولة ترفيهية من أول شارع فلسطين إلى آخره ثم العودة إلى حارتنا ربما المقاربة غير دقيقة لكوني مواطنًا عربيًا ينظر لجميع العراقيين بعين واحدة.

واستمرار لمشهد الصداقة بين الأسرتين رأيته عند عناق اللقاء بين الحاجية كواكب، وصديقتها الشيعة ووقفاتهن الطويلة في السؤال عن الأحوال، والترتيب لزياراتهن للأولياء والصالحين، ثم متابعتي للحظة الانشراح بعد العودة والانصراف إلى البيوت، وهذه العلاقة النموذجية أو المثالية التي تقوم على احترام المختلف الثقافي هي السبيل الوحيد ليتجاوز العراقيون انتماءاتهم (التاريخية) التي لا فكاك منها ليتمكنوا من صناعة حاضر مستقر يقوم على احترام التنوع وترسيخ مفهوم المواطنة المتساوية وغير هذا ستظل دورة الصراع مستمرة.

وكان الخطاب الديني - خاصة في مساجد السنة التي أرتادها- يسعى إلى المقاربة بين الجانبين، ولم اسمع أي خطاب معادٍ للشيعة، بل العكس هو الصحيح فغالبًا يتم التركيز في خطبتي الجمعة على المشترك المقرب من ذلك ذكرهم لعلاقة التصاهر بين سيدنا على (كرم الله وجهه) وسيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكيف أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سمى أولاده بأسماء

الخلفاء الراشدين، كما يتم ذكر أهل البيت بما يستحقونه من التقدير والإجلال.

وفي ما يشبه ذلك في الطرف المقابل ذات يوم زرت منطقة الكاظمية ذات الأغلبية الشيعية ودخلت مرقد الإمام موسى الكاظم الإمام السابع بحسب المذهب الإثنا عشري، وعند عودتي إلى المنزل جرى حوار ودي بيني وبين سائق التكسي (الجعفري) ولأن الحديث جر نفسه بنفسه تكلمت عن محبة السنة لأهل البيت دون الغلو، وقلت إن الخطاب الشيعي يحرض على الكراهية بلعن الصحابة، وأم المؤمنين عائشة، وطبعًا كانت نبرة الطرح هادئة، وفي سياق ترديد ما هو مشاع واللافت في ردود رفيق المشوار هو نفيه لهذه (الادعاءات) تمامًا إلا في حالات محدودة غير شائعة، وذكر لي حضوره للكثير من الدروس، ولم يسمع يوما إساءة للصحابة، بل قدم لي دعوة لحضور درس لعالم شيعي ذكر اسمه لأسمع بنفسي وأتأكد ، و بادر بأن تكون أجرة المشوار كرمًا من عنده، وكان يدعوني بنبرة واثقة أو هكذا بدا لي الأمر، طبعًا

اعتذرت له عن عدم الحضور، وعلى أية حال فطبيعة العلاقة بين أصحاب المذهبين غير واضحة أو معلنة وتعتريها ارتدادات سلبية عابرة للقرون، وحتى الخطاب السني التقاربي حمل رسائل ضمنية على الاعتراف بوجود (التنوع) ويشير من طرف خفي على (نوم الفتنة) لهذا استلزم الخطاب العقلاني الذي يقرب ولا يبعد.

وكانت للقبضة الأمنية للنظام العراقي أثرها في استتباب الأمن العام. وعدم السماح بأي شكل من الأشكال التعبير عن الرأي، يتوازى في ذلك مع كل الأنظمة العربية، وكان الاحتشاد المسموح به للفرح فقط في المناسبات الوطنية، وفي عيد ميلاد الرئيس صدام حسين وأتذكر في آخر عام احتفل به العراقيون بهذا العيد (٢٨ ابريل ٢٠٠٢م) تحركت حافلات من مدينة (صدام) ذات الأغلبية الشيعية وتوقفت في شارع فلسطين وهي تصدح بالشيلات في محبة الرئيس صدام، وبعد الاحتلال الامريكي تغيرت تسمية المدينة إلى مدينة (الصدر) وطبعًا تحركت حافلات في مناسبة أخرى، ووصلت شارع فلسطين في ذات المكان والجديد هو تغير مفردات الشيلات..

في الجامعة كنا نلاحظ أو نستشف هذه الثنائية المذهبية من مسميات الأساتذة أو عندما يتبرع بعض الطلاب (القدامى) في ذكر مذاهب الأساتذة، ولأن معظمهم ينتمون تنظيميا لحزب البعث فكان التنافس بينهم لاعتلاء المناصب الأكاديمية يعتمد في الغالب على المرتبة الحزبية. وكنا لا نشعر بهذه الثنائية إلا بوصفها مسألة معرفية ظاهرية.

وبخصوص علاقة الأساتذة، مع طلبة الدراسات العليا فهي محكومة بأنظمة ولوائح الدراسات العليا ففي البداية كان المشرف على أطروحتي هو الأستاذ الدكتور طارق نافع الحمداني (سني) وبعد ما يقارب العام حدثت حركة تحولات للمشرفين في القسم وصار مشرفي الأستاذ الدكتور جعفر عباس حميدي (جعفري) وكنت في السنة التحضيرية أجلس كثيرا في مكتب الدكتور طارق الحمداني، فقد عرفته عندما كان أستاذًا زائرًا في كلية الآداب جامعة حضرموت، فساعد ذلك على اختصار الكثير من المسافات لكن الأهم من ذلك شخصية الدكتورة طارق الوقورة الودودة المتعاونة.

ذات يوم لفت نظري أحد طلبة الدكتوراه وأخبرني أن هذا الحضور المكثف ربما يدخلني في حساسية معينة مع بقية الأساتذة ونصحني بأن أكون على مسافة متقاربة من الجميع، وفعلا التزمت بهذه النصيحة، ولاحظ أستاذي سياسة التحفظ الجديدة، وذات صباح خرج من مكتبه وكنت قائما في زاوية قريبة من مكاتب المدرسين فتوجه إلي، وسلمت عليه، ثم أمسك بيده اليمنى يدي اليسرى ومشينا معًا إلى مكتبه مشية الأصدقاء المتفاهمين، وجلست مقابلا له كعهدي قبل النصيحة، ودار الحديث عن أحوالي الدراسية، والخاصة، وبهذا الأسلوب الراقي أوصل رسالته "والحليم تكفيه الإشارة "

وبعد أن عُين الدكتور جعفر مشرفا على أطروحتي لم أشعر في حضرته بالغربة العلمية، ولا الإنسانية، كما كان حالي السابق، بل أحيانًا أحدثه عن بعض نقاشاتي العلمية مع (المشرف الأول) وبعيداً عن بعض التفاصيل فإن أروع ما في المشهد النظرة الحكيمة عند (مشرفي الثاني) الذي نظر لهذا التواصل بوصفه نوعًا من أنواع

وفاء التلميذ لأستاذة، وهكذا وضعتني المقادير – وهذا من حسن حظي– قريبًا من عملاقين –خلقًا وعلمًا- يصعب المقارنة بينهما، ولعلي لا أبالغ إذا شبهتهما بنهري دجلة والفرات اللذين لكل منهما منابعه البعيدة لكنهما يجريان على أرض واحدة بالتحامهما – أو حتى بتقاربهما – تخصب الأرض ويعم الخير.

* * *

بغداد تحت الاحتلال الأمريكي

في ٩ أبريل ٢٠٠٣م دخلت القوات الأمريكية بغداد، وشاهد العالم تلك اللحظات التاريخية مباشرة عبر القنوات الفضائية، وبينما كنت أتابع الأخبار في عصرية ذلك اليوم اتصل بي على غير العادة من مدينة سيئون الصديق المؤرخ عبدالرحمن بن حسن بن عبيد اللاه السقاف، لأشاركه مشاعر الغصة لسقوط هذه المدينة العربية برمزيتها التاريخية العريقة، وحسب ظني لم تكن تعنيه التداخلات السياسية للحدث ذاته حينئذ، وربما استحضر كما استحضر معظم العرب مأساة سقوط بغداد بيد المغول سنة ١٢٥٨م.

والاجتياح الأمريكي لم يأت على حين غرة، فكل المؤشرات تدل على حدوثه؛ لهذا شهدت الأسابيع الأخيرة من شهر مارس ٢٠٠٣م خروجًا جماعيًا للطلاب العرب، وصار أمر عودتهم لاستكمال دراستهم الجامعية محفوفًا بالمخاطر، ومجهول المآلات،

ومما ساعد على ضبابية الأوضاع انقطاع شبكة الاتصالات بالتلفونات الثابتة، أما الاتصالات عبر الجولات الذي ظهرت في معظم دول العالم فلم يسمح بإدخالها النظام العراقي لأسباب أمنية، وبعد شهرين تقريبا من الاحتلال بدأت تتحسن شبكة الاتصالات الأرضية ووصلت من بغداد إشارات مشجعة على العودة.

كان أمام الطلاب ممن هم على وشك التخرج خيارات كلها صعبة منها العودة إلى العراق (المحتل) وتكملة المشوار مهما كانت المصاعب والتحديات، أو البحث عن بعثة دراسية في دولة أخرى، وهذا يعني الرجوع إلى نقطة الصفر، وضياع سنوات من الجهد، والعمر، وكنت ممن اختاروا قرار العودة دفعني إلى ذلك؛ كتابتي لمعظم فصول الأطروحة قبيل الحرب، كما لم تظهر في الأسابيع الأولى (للحكم) الأميركي مما يشر إلى تهديدات ماثلة.

وهكذا بدأت رحلة العودة في أواخر أغسطس ٢٠٠٣م برفقة صديقي وقريبي (الدكتور) سعيد سالمين بلعفير. كنا من أوائل الداخلين (من حضرموت)، وكانت مغامرة بمعنى الكلمة فعلينا

التعايش مع عراق مغاير بلا جيش وطني، وفي غياب الأجهزة الأمنية. انطلقنا من عمّان على حافلة مليئة بالركاب من عراقيين (مواطنين)، وعرب (غير مواطنين)، وكان المعتاد في عهد النظام (السابق) عندما نصل المنفذ العراقي الحدودي مع الأردن (الطرابيل) نمكث فيه بين الساعتين إلى الثلاث ساعات تتم فيها عملية التفتيش الدقيق، والمتابعات خاصة لمن أراد تسجيل ما عنده من كتب أو عملة صعبة، أو ذهب ليتمكن من الخروج به، ومعه تأكيد رسمي بذلك، كما كان يتم أخذ عينة من الدم لغرض الفحص من مرض الايدز، ثم ننتظر إلى أن تختم الجوازات.

في (العهد الجديد) سيطر المحتلون الامريكيون على كل المنافذ البرية لهذا توقعنا المكوث في منفذ (الطرابيل) ساعات مضاعفة من المعاناة لكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فقد أخذ السائق جوازات سفر الركاب وتابع بنفسه إجراء ختم الدخول، والجميع في مقاعدهم، واستغرق الوقت أقل من نصف ساعة، ثم استأنفنا المشوار في غمرة دهشتنا، وسرورنا معا، ولم أجد لذلك

تفسيراً مقنعاً إلا بعد أن تدهور المشهد الأمني في العراق في مدة لاحقة فأدركت الأبعاد الخبيثة لتلك التسهيلات.

كنا مستوعبين لهذا التحول الدراماتيكي، وبأننا سنكون في عراق جديد من حيث شكل الدولة ،وإن غطاء حماية النظام السابق للعرب صار من الماضي وأن تصنيفنا (مواطنين عرب) سينخفض في أحسن الأحوال إلى منزلة ضيوف عرب (خطّار) حسب اللهجة العراقية، وفي الآن ذاته توقعنا ظهور مشاعر عدائية ولو محدودة، فقد عاش العرب في زمن الحصار بما يشبه الطبقة الاقتصادية المميزة مستفيدين في ذلك من انهيار قيمة الدينار العراقي أمام الدولار الأمريكي، وهذه الهواجس إذا ربطت مع السياسة الأمريكية القائمة على تفكيك العراق، وترسيخ سياسة الفوضى الخلاقة فإنها تنذر بسناريوهات قاتمة تزعزع الاستقرار في العراق.

وهذه المرحلة ممكن وصفها بـ (الترقب والحذر) فكان الرئيس العراقي صدام حسين يحرض من مخبئه على مقاومة المحتلين لهذا تعددت مواقف الناس؛ فبينما نسمع انتقادات صارخة ضد

النظام السابق، هناك من يخفي مشاعره، وينتظر ما تسفر عنه دورة الأيام، وفي المقابل نلاحظ مشاعر متوجسة تصل إلى الخوف من المجهول عند بعض من هم محسوبون على النظام السابق مذهبيًا أو حزبيًا. وهكذا بقيت الأمور شبه معلقة أو بين بين.

لكن رغم انهيار الدولة العراقية ووقوعها تحت الوصاية الدولية فإن مظاهرها ظلت قائمة فكانت العملة الوطنية تحمل صورة الرئيس صدام حسين، وكذا العلم الرسمي، وكل المعاملات الرسمية تجرى باسم جمهورية العراق، كنا نقرأ عن تحضيرات لاستبدال العملة، وتشكيل لجان عراقية لكتابة دستور جديد للبلاد. كما تم إصدار العديد من الصحف الأهلية هاجمت بعضها بقوة النظام المنهار. وعلى وجه الإجمال كانت المشاهد تشير إلى أن العراق يستعد دخول مسارات مغايرة في تاريخه المعاصر. وهو ما حدث فيما بعد تدريجيا خاصة بعد اعتقال الرئيس صدام حسين في ١٣ ديسمبر٢٠٠٣م بما سمي (عملية الفجر الأحمر) وتفاصيل ذلك خارج عنوان المقال المعني

بمشاهداتي لبغداد المحتلة مدة مكوثي القصيرة فيها من أغسطس إلى نوفمبر من السنة نفسها.

وعلى الصعيد الشعبي العراقي لم نلمس تجاهنا أي مشاعر سلبية حتى ممن يعلنون فرحتهم بنهاية الحكم السابق، ومع هذا كنا نتصرف بحذر، ونتحرك في النهار (الصباح إلى قبيل المغرب) ونختار الحافلات في تنقلاتنا الداخلية ، أما الكهرباء فقد ظلت مشكلة عصية على الحل، ووصلت ساعات الطفي إلى اثني عشرة ساعة في اليوم، وعلى صعيد الاتصالات الدولية لاحظنا فتح محلات راقية بها (كابينات) مغلقة، وكنا – قبل الاحتلال – عندما نتصل من المكاتب الرسمية العراقية نسلم جواز السفر، وننتظر دورنا لدخول الكابينة ، ثم سمحت الحكومة العراقية في فترة متأخرة بالاتصالات عبر مكاتب صغيرة يوجد بها تلفون مطروح على الطاولة، وطبعا كل العابرين يسمعون المكالمات . ومع هذا فكانت معقولة بحسب زمانها.

فور دخولنا بغداد استأجرنا غرفة في فندق في ميدان التحرير، وهناك وجدنا زملاءنا من الطلاب اليمنيين الذين سبقونا في الوصول، وكان تحت الفندق مبنى لوزارة الدفاع العراقية تحت سيطرة القوات الأمريكية، لهذا نشاهد من النوافذ تحركات الدبابات، ونسمع هدير جنازيرها عند دخولها المبنى وخروجها منه، وهذا الوضع جعلنا نشعر بالخوف من احتمال حدوث هجوم مسلح عليها، وحقيقة الأمر لم تكن عندنا نوايا للإقامة الطويلة في الفنادق؛ إنما نعدها محطة ترانزيت اضطرارية حتى نتمكن من التواصل مع أسرة الدبلوماسي (منصور العبيدي) بوصفها هدفنا الأول للحصول على بديل آمن للسكن خارج الفنادق.

ولم يكن يخامرني الشك البتة في موافقتهم على السكن في الشقة (المشتمل) التي كنا فيها إلا لسبب قاهر، وفعلا حصل ما توقعناه، وكان الترحيب البشوش من هذه العائلة الوفية، يعكس عمق التقدير المتبادل العابر للزمان، وتحولاته، وبدخولنا الشقة شعرنا بالاطمئنان، وتلاشت الكثير من الهواجس، وكان وجود ضابطين من هذه

العائلة السنية في الجيش العراقي (المنحل)، يشير إلى سلامة توصيفنا لهذه المرحلة بـ (الحذر والترقب).

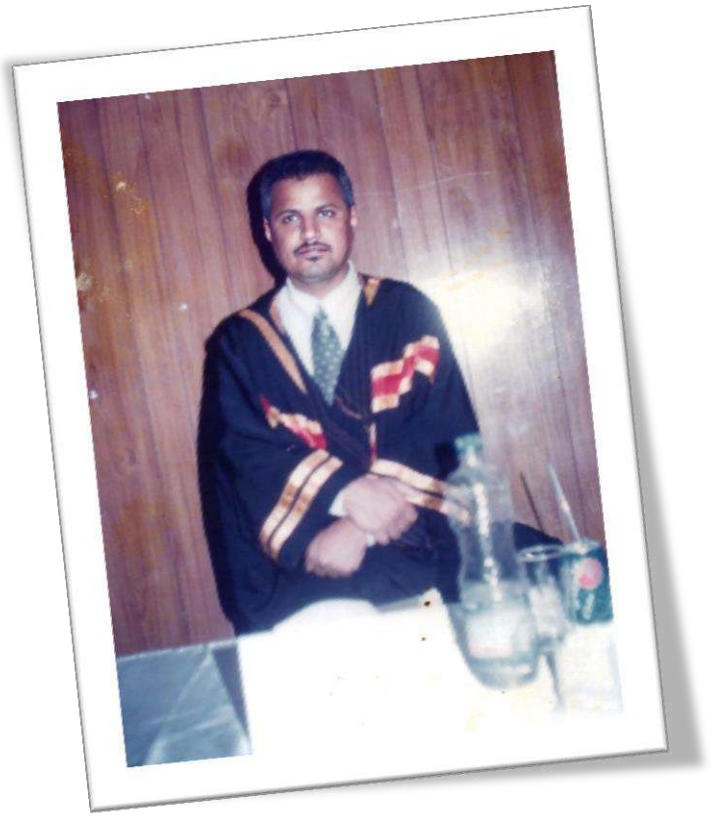
ثم تواصلت الأخبار السعيدة بوصول أصدقائنا المبعوثين من جامعة حضرموت – دكاترة المستقبل- وهما: (صبري التريمي) و(خالد بلخشر) فتنامى شعورنا بالألفة، وأضفوا على سمرنا البغدادي على ضوء الشموع مزيدًا من المرح والدفء. لكن دوام الحال من الحال فبعد مغادرتنا لبغداد حدث انهيار مريع للمشهد الأمني في العراق، وسمعت ممن شاهدوا ذلك الانهيار تعرضهم لمخاطر هددت حياتهم، لكن شتان بين رواية من سمع، ورواية من شاف وسمع...

* * *



ملحق الصور





لحظة الاستماع لقرار لجنة المناقشة (١٦/ ١٠/ ٢٠٠٣م)



أقصى يمين الصورة أ.د. جعفر عباس حميدي، وعن يمينه أ.د. يقظان سعدون العامر، ثم أ.د. طارق نافع الحمداني، وفي الوسط رئيس لجنة المناقشة أ.د. نوري عبدالحميد العاني، وعن يمينه أ.د. علي ناصر حسين، ثم أ.د. صبري فالح الحمدي.







مع أستاذي المشرف أ.د. جعفر عباس حميدي،
بعد إعلان قرار لجنة المناقشة



الجالس: أحمد منصور العبيدي،
عن يميني (الدكتور) صبري التريمي، وعن يساري (الدكتور) خالد بلخشر، وعن يساره (الدكتور) سعيد بلعفير



يمين الصورة (الدكتور) جمال فيصل،
ثم (الدكتور) عبدالحميد البكري، و (الدكتور) خالد بلخشر

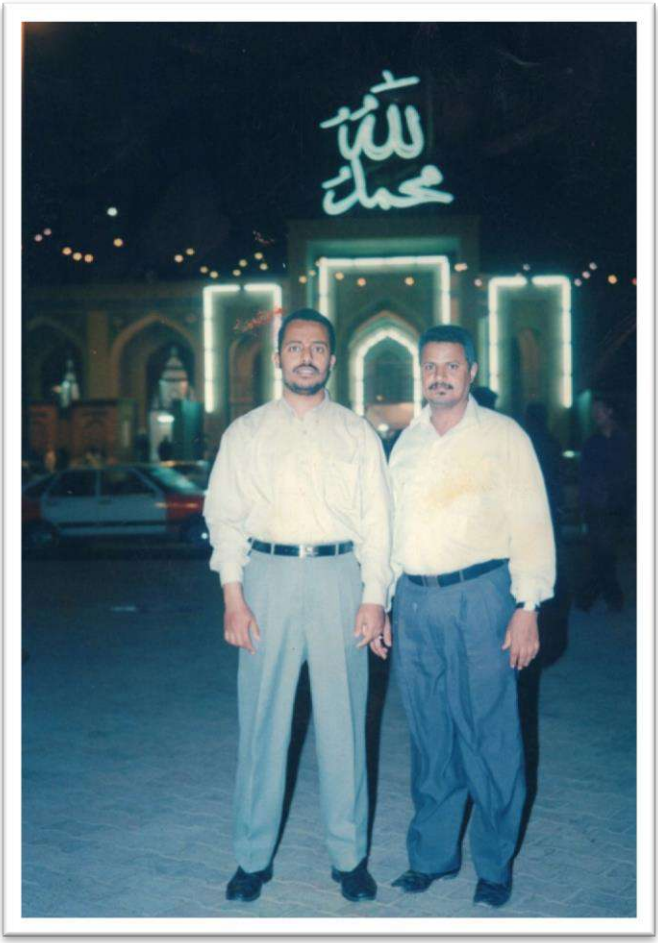


جانب من حضور جلسة المناقشة

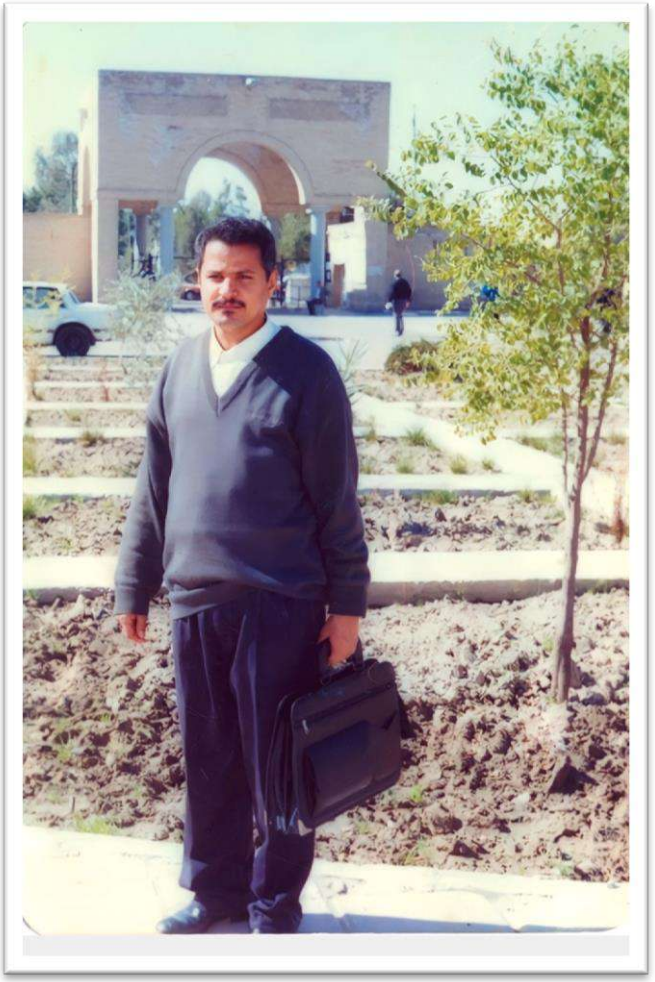


مع ضيوف من جامعة حضرموت في برج بغداد

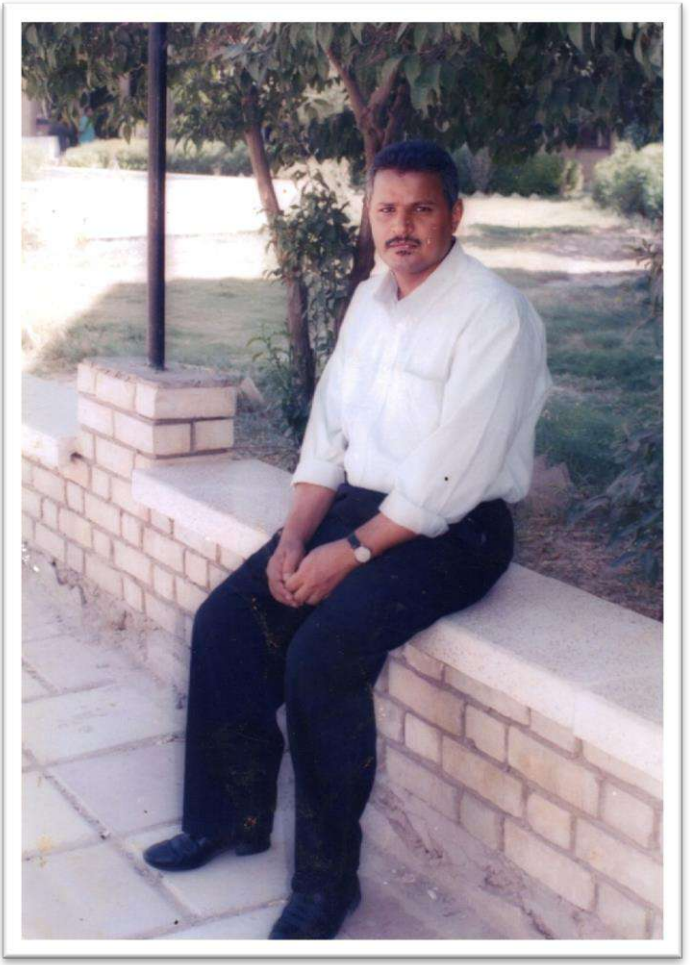
عن يميني الزملاء عمر بن حوله، عمر خميس، محمد بلفقيه



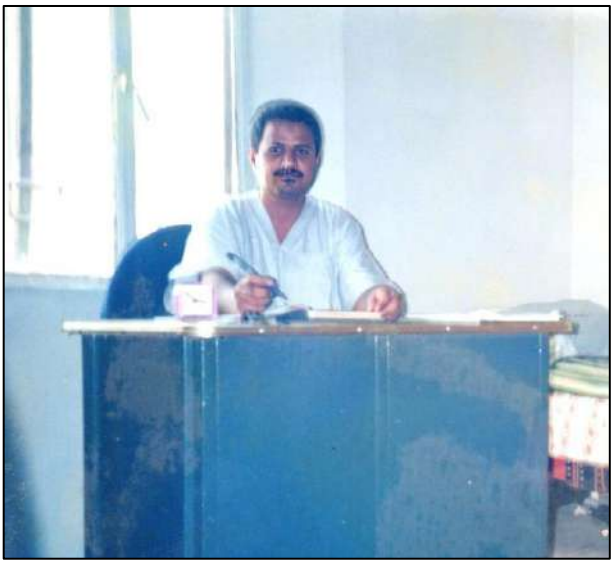
مع الصديق (الدكتور) صبري عوض التريمي،
بجوار مسجد الإمام أبو حنيفة النعمان



بجوار البوابة الرئيسة لمجمع الكليات – جامعة بغداد



داخل حرم كلية التربية (ابن رشد) أكتوبر ٢٠٠٣م



مكتبي في شقة العم (منصور العبيدي)

المحتويات

- **تقديم**..... أ. د. خالد يسلم بلخشر ٧
- **توطئة** **١٣**
- **بغداد.. عتبات دافئة** **١٧**
- **بغداد.. الليل والعم قيس والكلاب** **٢٣**
  - مرحلة الشكوى **٢٧**
  - مرحلة الصداقة **٢٨**
  - مرحلة العداوة والخداع **٣٠**
- **الشحر في بغداد.. المريض والمداوي** **٣٥**
- **يوم حزين ويوم (رمضاني) سعيد** **٤٠**
- **مع بعض تفاصيل بغداد** **٤٥**
- **داخل أسوار الجامعة** **٥٠**
- **بغداد.. سنة شيعة** **٥٦**
- **بغداد.. تحت الاحتلال الأمريكي** **٦٥**
- **ملحق الصور** **٧٣**

هذا الكتاب

إن السرد في هذا الكتاب لا يتبع خطًا واحدًا، ولا تفاصيل يومية، بقدر ما هو مقالات عن السكن، والجامعة، واللهجة، والمجتمع البغدادي بشكل عام، وتقف بغداد في هذه الذكريات بهية جميلة مع كل ما لحق بها من ضرر جراء الحروب، والغزوات، والقصف، والحصار، بغداد هي محور السرد، وبطلته المتسيدة، والحاضرة بقوة في طياته، وهي مدينة ليست كسائر المدائن، مدينة لا تشبه إلا نفسها، يشعر المرء فيها بأنه يعيش في مدينة صامدة منذ قرون من الزمن، وفي الواقع بغداد هي مجموعة مدن تتداخل في مدينة واحدة شاسعة، تمتد أفقيًا على مساحة كبيرة، تملؤها غابات النخيل التي تكسوها بهالة من القتامة وقت الغروب، وفي ساعات الفجر الأولى؛ لهذا يُطلق على العراق (أرض السواد).

أ. د. خالد يسلم بلخشر



تريم للدراسات والنشر